الوضوح والغموض في الأدب الإسلامي

د. محمد سليمان*

ظاهرة الوضوح والغموض ظاهرة قديمة جديدة ترتبط بمرجعيات نقدية كثيرة لعل أهمها الزمان والمكان، فما كان بالأمس غموضا قد يراه زمان ومكان آخر غير ذلك.

أما في البعد الخاص للظاهرة فهناك ثقافات متنوعة ومختلفة في الرؤى، فقد يرى شخص غموضا في إبداع ما ويراه آخر تفوقا وسموا، ومن هنا دفعتني هذه الآراء لأبين شيئا عن هذه الرؤية النقدية لا سيما وأن كثيرا من النقاد اليوم يرمون الأدب الإسلامي بالمباشرة التي تعود بالأدب إلى عصر الجمود.

وفي هذا السياق يجب أن ينظر إلى الوضوح والغموض في الأدب الإسلامي من خلال الهدف الرئيس الذي ينشده هذا النموذج الأدبي، وهو نشر الفضيلة بصورها كلها، وتشجيع صاحبها، وبث كلماته في الوجود لتبعث السعادة والرضا للبشرية، وبهذا لا نركض خلف الوضوح الفاضح كما يظن بعض الأدباء والنقاد الذين يهاجمون فكرة الأدب الإسلامي لا لشيء سوى التعصب، وإنما نرنو إلى الغموض الشفاف الذي يحتاج إلى شيء من إعمال الفكر، وبذلك لا نقع في أدبنا تحت مظلة من قال في أدبهم الجاحظ:«ما كان سهلا، ومعناه مكشوفا بينا فهو من جملة الرديء المردود». ولا نجلس في دروب غلو أبي تمام في غموضه كما أورد المرزباني في موشحه:«إن كان هذا شعرا، فإن ما قالته العرب باطل».

ولا بد أن يكون للغموض وجود في الأعمال الإبداعية على أن يكون على درجة من الوعي من قبل المبدع، يحرك به متلقيه، ويوجههم إلى التبصر في المعاني. كي لا يصرفهم عنها إلى دوائر الغموض المبهم، وإلى التحليل والتوقعات التي لا يفهمها كاتبها، ولا مبدع النص نفسه في كثير من الأحيان، كما هي الحال في بعض المذاهب النقدية الحديثة كالرمزية والسريالية.

وبعد، فثمة تناغم بين المعنى المقدم في الأدب الإسلامي وبين الأسلوب الذي صيغ به. وإن الوضوح في هذا النمط الأدبي وضوح محبب ينسجم مع الرؤية العربية للأدب منذ فجره الأول، حيث إنه ليس وضوحا مكشوفا كما يدعي بعضهم بل هو وضوح قريب من الروح العربية التي تتعشق الشعر تعشقها الحياة ■

* كلية المعلمين بالأحساء - السعودية